بسم الله الرحمن الرحيم

موجز تاريخ اللغـة البراهوية وآدابها

ان بلاد جنوب آسيا ـ أو بعبارة أخرى ، بلاد شبه القارة ـ تمتاز بكثرة الأديان وتعدد اللغات وتنوع اللهجات حتى يقال ان عدد اللغات واللهجات التى يتناولها الناس ويتحدثون بها فى هذه البلاد لا يقل عن مئتى لغة ولهجة بين صغيرة وكبيرة من ناحية الآداب المنتجة أو الناطقين بها ٠

وأما جمهورية باكستان الاسلامية التى تحتل ، بحكم موقعها الجغرافى ووضعها الاستراتيجى ، مكانة ممتازة بين دول هذه المنطقة فان عدد اللغات واللهجات بها أيضا لا يقل عن اثنتا عشرة لغة أو لهجة اقليمية أو لهجـــة محلية الى جانب اللغة الأردوية لغة باكستان القومية ٠

وهذه اللغات الاقليمية أو اللهجات المحلية هى :

(١) البراهوية ٠ (٢) البروشكية ٠ (٣) البشتوية ٠ (٤) البنجابية (٥) البلتية ٠ (٦) التلوصية ٠ (٧) الخوارية ٠ (٨) السرائكية ٠ (٩) السندية ٠ (١٠) الشنائية ٠ (١١) الكشميرية ٠ (١٢) الهندوكية وهى غير الهندية ٠

وأن الذى يجمع بين هذه اللغات الاقليمية واللغة القومية أى الأردوية هى ثلاثة أشياء :

١ ـ ان الأغلبية الساحقة الناطقة بهذه اللغات المحلية كلها هم المسلمون

٢ ـ وتكتب هذه اللغات كلها بالخط العربى بالاضافة الى الأصـــوات المزيدة الجديدة التى تشبه حروف الهجاء العربية شكلا وتخالفها صوتا ونطقا ٠

٣ ـ أن هذه اللغات واللهجات الباكستانية كلها الى جانب اللغة الأردوية تستمد من اللغة العربية وتحتاج اليها فى مفرداتها اللغوية ومصـطلحاتها الفنية وأفكارها المعنوية ٠

وأما حديثنا فى هذا المقال الموجز فانه سيقصر على اللغة البراهوية التى يرجع أصلها الى اللغة الدرافيدية كما اكتشف الباحثون اللغويون فى أحدث بحوثهم عن اللغات الباكستانية ومن المعلوم تاريخيا أن هذه اللغة الدرافيدية قد كانت لغة الدرافيديين سكان الهند الأصليين الذين سبقوا الآريين فالدرافيدية هى أقدم من اللغة السنسكريتية التى يعتبرها الهنادكة لغة مقدسة دونت بها كتبهم الدينية كما أنهم كانوا يدعون بأن السنسكريتية هى أم الألسنة الهندية وأصلها الا أن البحوث اللغوية الحديثة قد حققت ابطال هذا الادعاء ٠

فمعنى ذلك أن اللغة البراهوية التى نحن بصدد الحديث عنها الآن هى أقدم اللغات التى يتحدث بها سكان جنوب آسيا وحتى السنسكريتية :

موطن البراهوية :

وينطق بها أهل منطقة فلات فى بلوشيستان من اقاليم جمهورية باكستان الاسلامية وهى منطقة جبلية مكونة من الصخور والسطوح المرتفعة والنجود التى تقع فى غرب « جبال سليمان » و « جبل كيرتمر » ، وقد كانت بين هذه المناطق وبين مناطق آسيا الوسطى صلات مباشرة مستمرة وذلك من أربعة طرق مؤدية وهى : (١) مضيق بولان (٢) مضيق مولا (٣) الطريق الساحلى من مكران ولسبيلة (٤) الطريق البحرى ٠

وبحكم موقعها الجغرافى لها أهمية كبيرة من النواحى الاستراتيجية والسياسية والثقافية فان حدودها تتصل بالبحيرة العربية جنوبا وبايران غربا وبأفغانستان شمالا وهذه المنطقة تشتمل معظمها على الجبال والصحارى ٠

ويعيش البراهويون حياة قبلية من الحل والترحال ويتحدثون بلغة قد عرفت باسم قبيلتهم وأما عن أصلهم فقد وردت فيه آراء مختلفة متضاربة فمن قائل انهم العرب أو الاكراد وقيل انهم الأتراك والمغول أو البلوص الايرانيون وهناك رأى قد يكون مصيبا وهو أنهم خليط من الأجناس المختلفة المتعاهدة بما فيهم الزط والأكراد والمغول والبلوص والبتان ولكن البحوث الأخيرة عن أصلهم تقول بأنهم البلوص الذين كانوا فى طليعة من هاجر منهم

الى هذه المنطقة : ومهما يكن من شيء فان العشيرة التى يعترف البراهويون بقيادتها وسيادتها فهى قبيلة عربية فيما قيل ٠

وقد استعار البراهويون الكثير من المفردات اللغوية الدرافيدية لغة الدرافيدين السكان الأصليين لوادى السند وذلك لطول جوارهم لهم والمخالطة بهم ثم طردهم الآريون فيمن طردهم من الدرافيديين من ديارهم فى وادى السند فهاجروا الى هذه المناطق الجبلية الصحراوية فى قلات موطنهم الحالى ، ويقال ان الخصومات والمشاجرات الداخلية والعدوان الخارجى والضرورات الاقتصادية والاجتماعية قد جعلتهم يميلون الى الوحدة والتنظيم فلجأوا الى قبيلة أحمد زائى أكبر قبائلهم وأقواها لتتزعمهم وتقودهم فى الأزمات وتشرف على نظامهم السياسى والاجتماعى ومنذ ذلك اليوم تمركزت القيادة والسيادة فى القبيلة الأحمد زائية التى تنتمى الى أصل عربى والتى لا تزال تملك أزمة القوم ومقاليد حكمه ومنها خانات قلات المعروفين بكرمهم وشجاعتهم ٠

ومن القيم الاجتماعية والمبادىء الخلقية التى تتبعها القبائل البراهوية والتى تفرضها على كل فرد من أفرادها أنهم قد جبلوا على أخذ الثأر فلا ينسونه مدى الحياة حتى يظفروا به ويسمون الثأر « بيتر » ولعلها كلمة عربية منحرفة عن أصلها (الوتر !؟) وكذلك فانهم يدافعون عن الضيف النازل أو المستجير بهم ويذودون عن الودائع والأمانات مهما كان الثمن وهم يسمون الأمانة « أنامة » وهى كلمة عربية منحرفة عن أصلها كما هو الظاهر بالبداهة وهم لا يعتدون على المرأة والطفل والهندوكى (الذمى) والأراذل والمساكين من الناس كما أنهم يقرون الضيف الطارق ويكرمونه اكراما بالغا للغاية ويقتلون من يقترف جريمة الزناء

ومن غريب التقاليد عندهم أنهم لا يقتلون العدو اللاجىء الى ضريح من ضرائح الأولياء والصالحين كما أنهم يعفون عن المجرم اذا تدخلت امرأة من قبيلته : ويغمدون السيوف المجردة فى القتال اذا جاءت المرأة أو عالم من علمائهم أو سيد شريف من آل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقف بين صفوفهم المقاتلة وهذا يدل على الاحترام البالغ عندهم لهؤلاء الطبقات ٠

ويقال ان البراهويين فى عصورهم القديمة كانوا يعبـــدون الميـــاه والأحجار والأشجار وقد ذكر البعض من الباحثين بأن الحجر كان يحتـل مكانة مركزية فى معتقدات المجتمع البراهوى القديم فقد كانوا يعبرون عن جميع عواطفهم أمام الأكوام من الأحجار حيث كانوا يجمعـــون كومة من الأحجار فيقفون بين يديها فيعبرون عما أرادوا من المشاعر والعواطف أو ما اعتزموا عليه من القسم أو الاعلان وغير ذلك وكانوا يسمون تلك الكومة الحجرية (خل ومعناها : الثقل أو الحمل الثقيل) ولعلها فى الأخرى كلمة عربية حرفوها عن أصلها العربى (كل : كل على مولاه !) .

وفى عام ٦٦٤ م دخل الجيش العربى الاسلامى فى هذه المناطق فاحتل مدينة خضدار أو قزدار وأسلم الكثيرون من البراهويين الا ّن الأغلبية منهم ظلت رهن التقاليد الجاهلية والعقائد الخرافية الواهية حتى شاءقدر الله أن يعز الاسلام فى المناطق البراهوية ويمهد السبيل بها لتطبيق الشريعة الاسلامية فجاء الخان المسلم الشهير المهتم بدينه الميرنصيرخان من خاناتقلات وحكامها فقام بخدمة الشريعة الاسلامية وتطبيقها على الأراضى البراهوية وكان ذلك فى عام ١٨٥٩ م واتيح لهذا الحاكم المسلم العادل أن يساعده عالم ربانى من العلماء المسلمين الأفاغنة وهو الشيخ ملك داد بن آدين غرشين القندهارى ثم القلاتى وكانت له قدم راسخة فى العربية وعلومها والشريعة الاسلامية وأصولها وفروعها وكان يجيد اللغة البشتوية والبراهوية الى جانب الفارسية فنظم ملحمة اسلامية بالبراهوية وسماها « تحفة العجائب » وذكر فيها الكثير من العقائد الاسلامية والمسائل الشرعية وهو أول كتاب دون فى اللغة البراهوية وهذه المنظومة وان كان موضوعها العقائد الدينية والمسائل الشرعية الا انه لا تخلو عن رونق الشعر وجماله الفنى وتزود القارىء بالمعلومات الدينية والمتعة الأدبية فى نفس الوقت :

واللغة البراهوية ـ لغة القبائل البراهوية ـ فى أصـــلها وجوهرها وتصاريفها وقواعدها تشبه اللغات السامية أو قل انها أقرب من اللغـــات السامية منها من اللغات الآرية أو الهندو ـ آرية فهى ليست من اللغات التى يعرفها اللغويون بذوات البوادىء واللواحق مثل اللغات الآرية كما أنها ليست من تلك اللغات التى تعرف عند اللغويين باللغات المفردة والوحدويةأو ذوات الحرف الفرد لكل معنى من المعانى مثل اللغة التبتية والصينية وانما هى من

اللغات المزوجة أو الالتحاقية مثل اللغات السامية واليورال الطائية وهذه الميزة الخاصة التى تمتاز بها البراهوية كأخواتها من اللغات الدرافيدية الأخرى تؤيد الرأى القائل بأن اللغات الدرافيدية التى كانت لغات الحضارة الفائقة والتى سبقت عصر اللغة السنسكريتية يرجع أصلها الى أسرة اللغات التى عرفت باللغات السامية الا أن هذا الرأى لم يتحقق بعد وفى حاجة الى المزيد من البحث والتحقيق وقد تكشف البحوث الانسانية واللغوية عن الحقائق التاريخية الخفية المجهولة حول أصل الدرافيديين فتحقق بأنهم ينحدرون من أصل سامى وكانوا قد هاجروا من موطن الساميين فى عصر متقدم جدا كما يدعى البراهويون أنفسهم بأنهم نزحوا من حلب فى سورية :

ويرى البعض من الباحثين المعاصرين أن اللغـــة البراهوية وان كانت من اللغات الدرافيدية الا أنها تختلف اليوم من أخواتها الأخـــرى مثل اللغة التاملية والكنادية والتلوجية وغيرها وأن هذا الاختلاف والتغير يرجع الى الانعزال أو التخلف الذى مرت به اللغة البراهوية فاختلفت من تلك اللغات الدراقيدية ومن الصعب لنا أن نؤيد هذا الرأى أو التعليل لأن الأمر قد يكون بالعكس وذلك لأن اللغة التى تعيش بمعزل عن التيارات التاريخية والتغييرات الزمنية هى التى تستطيع أن تحتفظ بأصلها وتسلم من التغير والتبدل كالعربية مثلا فانها عاشت فى الجزيرة العربية بمعزل من كل ما حدث باللغات السامية فسلمت من تأثير ذلك واستطاعت أن تحتفظ بخصائصها السامية الأصيلة اذن فالبراهوية هى التى بقيت على أصلها واحتفظت بخصائصها الدرافيدية القديمة واللغات الدرافيدية الأخرى هى تغيرت ولم تستطع أن تحتفظ بأصولها بسبب التقدم الحضارى والاختلاط والتأثر باللغات الأجنبية الأخرى ٠

واللغة البراهوية كما رأينا درافيدية القواعد والمفرادت اللغوية أى أنها تشبه الأصل الدرافيدى فى قواعدها ومفرداتها اللغوية فان الضـــمائر فى البراهوية درافيدية الأصل كما أن المفردات اللغوية التى يحتاج اليها الانسان البدائى مثل المفردات التى تستعمل للاعضاء البدنية كالفم والأذن والعين والرأس والدماغ والدم والنوم كلها دراميدية الأصل وكذلك المفردات اللغوية التى يحتاج اليها الانسان فى المجتمع البدائى من أسماء الأقارب ومن غريب الأمر أن هذا النوع من المفردات اللغوية فى البراهوية تشبه المفردات العربية وان انحرفت عن أصلها وتغير شكلها ٠

وكذلك فان أسماء الصفات والأفعال والمصادر التى لا يمكن أن يعيش الانسان بدونها وحتى فى المرحلة البدائية من الحياة الاجتماعية هىكلهـــا درافيدية الأصل مثل الكبير والصغير والقديم والجديد والحلو والمر والبارد والحار ومثل الكينونة والأكل والشرب والكلام والسماع والذهاب والاياب وغيرها من المصادر ، ويقول الخبراء بأن المفردات اللغوية المســـتعملة فى البراهوية الآن لا تتجاوز اثنى عشر ألف كلمـــة وهى تكتب بالخط العربى الفارسى · وأما الحروف الهجائية للغة البراهوية فهى نفس الحروف التى تستعمل بالعربية والفارسية بالاضافة الى الحرفين الجـــديدين اللذين تم ايجادهما للصوتين الاضافيين فى اللغة البراهوية المعاصرة ·

وأما عن الأدب البراهوى لقديم والجديد فاننا نستطيع أن نقسمه الى قسمين فالقسم الأول هو الأدب البراهوى القديم المروى على ألسنة القوم منذ العصور القديمة بشكل الأغانى الشعبية والأساطير والفولكلور ومن هـــذا القسم الأدبى أغنية براهوية شعبية تمتاز ببساطتها البدوية وتقول على لسان الفتى للفتاة :

أسقينى وترويني أيتها الحسناء !
ان الماء العذب فى يديك فأسقينى ورويني !
الماء ! الماء : يا ملكة الخيام !
ان الماء البارد فى يدك فأسقينى ورويني !

ومن القصص الشعبية البراهوية أن أربعة ـ صائغا ونجارا وخياطا وقديسا ـ من المسافرين نزلوا ليلا فى مكان قفر مخيف ليستريحوا حتى يسفر الصبح فاتفقوا على أن ينام الثلاثة يحرسهم الرابع وصارت النوبة الأولى للنجار فصنع تمثال المرأة من الخشبة ثم ناوبه الخياط فأعد لها الملابس ثم جاء الصائغ فصاغ لها الحلى ثم قام القديس بدوره فدعا لها فأصبحت امرأة حية جميلة وحين أصبحوا أخذوا يختصمون فى أمرها فاذا برجل خامس يمر بهم فيرجونه أن يعدل بينهم الا أنه هو الآخر يطمع فى المرأة ويشاركهم فى الخصومة فذهبوا جميعهم الى حاكم البلاد ليقضى فى قضيتهم فاغتصب المرأة وأمر بقتلهم جميعا !

وهذا القسم الأدبى من آداب اللغة البراهوية غنى بمثل هذه الأغانى والقصص الشعبية الى جانب الأمثال السائرة فمن أمثال الأدب البراهوى التى وصلت الينا قولهم فى الحاكم أو الملك الذى لا يرى الناس من رعيته الا أنه يسمع أخبارهم التى تصل اليه : ان الملك اذ لم تكن له عيون فله آذان يسمع بها ! ومنها قولهم فى الضعيف الذى لا يعبأ بالقوى رغم حاجته اليه : اذا حان موت الشاة اعتدت على خبز راعيها ! ومنها قولهم : ان الجيوش اذا خربت ديار قوم يمكن أن يستعيدوا ما ضاع لهم أما الذين يخربون أنفسهم بأنفسهم فمن المستحيل أن يستعيدوا ما ضاع لهم !

فهذه نماذج من القسم الأول للادب البراهوى الذى وصل الينا على ألسنة الرواة فدونته الأقلام اليوم وأما القسم الثانى من الأدب البراهوى فهو ما دونه أصحابه المنتجون سواء كانوا أدباء أو شعراء فأول ما أنتج ودون فهى المنظومة المشهورة التى سماها صاحبها الشيخ ملك داد بتحفة العجائب كما مر بنا وقد ألفها الشيخ فى ١١٧٣ هـ (١٨٥٩ م) وظلت المنظـــومة مخطوطا توارثه أبناؤه حتى عثر عليه عندهم عالم من العلماء البراهويين وهو الشيخ نبوخان فقام بتحقيقه واعداده للنشر فطبع فى لاهور فى عـــام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٥ م) . ان هذا الكتاب الغر الذى ألفه هذا الشيخ الفاضل لم يكن كتابا فقط وانما أصبح حافزا كبيرا لحركة كبيرة ونهضة علمية بين القبائل البراهوية وهذه الحركة تعرف فى الأدب البراهوى بحركة درخانية ودرخان اسم بلد فى منطقة قلات وكان الشيخ الفاضل نبوخان المذكور قـد ألف كتابين الى جانب ما حققه من منظومة الشيخ ملك داد أحدهما ناصح البلوص والثانى الغرائب وكلاهما شعر وهذه المنظومات الثلاثة أصـبحت وسيلة أدبية لتلك الحركة العلمية والأدبية التى عرفت بالحركة الدرخانية وألتى مر بنا ذكرها وأما الرجل الذى قاد هذه النهضة الفكرية فهو شيخ الاسلام محمد فاضل الذى يعترف بفضله كل بواهوى ويسمونه (شيخ البلوتشستان وأستاذ الكل) وهذه الحركة الفكرية قد ساهمت مساهمة كبيرة فى نهضة الأدب البراهوى شعرا ونثرا الى جانب دورها البناء فى ايقاظ القبـــائل البراهوية وتربية أجيالها الناشئة .

وقد أعدت هذه الحركة الدرخانية جماعة من الرجـــال الأكفاء الذين

قاموا بخدمة الشعب البراهوى فى كافة المجالات الى جانب النهوض باللغة البراهوية وآدابها فمن هؤلاء الأكفاء العلماء الشيخ عبد الله الدرخانى صاحب تحفة العوام وكنز الأخبار وغيرهما من المؤلفات القيمة والشيخ عبد المجيد والشيخ عبد الحى والشيخ عبد الباقى وجميعهم تلاميذ الشيخ محمد فاضل قائد الحركة الدرخانية وكانت له ابنة وحيدة فعلمها حتى أصبحت عالمة فاضلة وأديبة بارعة وقامت هى الأخرى بدور كبير فى ايقاظ المرأة البراهوية وألفت كتابا خاصا باللغة البراهوية وسمته « تسريع النساء » أى ايقاظهن بسرعة والى ذلك كانت شاعرة مطبوعة فقالت الشعر وأجادته .

ومن كبار شعراء اللغة البراهوية الشاعر « تاج محمد » الذى كان ينتمى الى قبيلة بنجال من القبائل البراهوية وكان يعرف بلقب (تاجل) وقد نظم الكثير من الشعر الراقى الرصين بالبراهوية وكان غاية فى الفطنة والذكاء الى جانب الصوت الحلو الجميل وله ديوان شعر متداول .

ومن الأدب الشعبى البراهوى قصة رائعة تعرف بمثنوى (ماه جل) ويقال انها قصة الحب والغرام الحقيقية ترجع أحداثها وأشخاصها الى المجتمع البراهوى الحى فحكى أن ماه جل ـ أى ذات الوجه الوردى ـ كانت فتاة براهوية غاية فى الاناقة والجمال فرآها شاب براهوى غنى فأعجبته فأحبها وأحبته فتزوجها فعاش الزوجان حياة السعادة والرخاء ورزقا بولدين وابنة واحدة وحدث ذات مرة أن غضب الزوج فزجر زوجته ماه جل مما جرح مشاعرها فحكت ذلك لجارة من جاراتها وكانت غاية فى الشر والشيطنة فانتهزت الفرصة لتفسد على الزوجين حياتهما السعيدة فقالت لها : ان زوجك لا يحبك لأنه لو كان يحبك لما زجرك لأن الزوج المحب لزوجته لا يزجرها انه يحب امرأة أخرى غيرك فعليك أيضا أن تحبى رجلا آخر غيره ثم دلتها على شاب قوى شجاع فاتصلت أسبابه بتلك الفتاة المغرورة المخدوعة فكانت عاقبة أمرها أن قتلها الزوج كما قتل خليلها ذلك الشاب الشجاع القوى !

والاهتمام بهذه اللغة ـ سواء كان من قبل الباحثين الأجانب أو من أهل البلد ـ قد زاد والجهود قد تكثفت فى وضع قواعد اللغة البراهوية وقواميسها وتدوين آدابها القديمة الى جانب الانتاج الفكرى والأدبى للعلماء

والآدباء المعاصرين فى كافة المجالات الفنية والأدبية والجدير بالذكر أن معظم الجهود المبذولة وخاصة فى وضع القواعـــد والقواميس كانت من قبـــل المستشرقين من المانيا وانكلترا وغيرهما الا أن المواطن البراهوى لم يتخلف فى هذا الميدان وهو على وعى مستمر ويريد أن يقوم بدوره فى خدمة لغته وآدابها فقد أسسوا لجنة مكونة من كبار شعراء البراهوية وأدبائها وكتابها وعلمائها وعلى رأسهم الأستاذ الكبير (أنور رومان) وقد أخذت هذه اللجنة تعتنى بالأدب البراهوى وتصدر العديد من المجـــــلات والجرائد فى اللغة البراهوية وقد أتيح لجامعة بنجاب بلاهور ـ أقدم جامعات باكستان وأكبرها وأشهرها · أن تساهم فى خدمة اللغة البراهوية وآدابها الى جانب اللغات الاقليمية الأخرى فخصصت جزءا من أجزاء تاريخ أدب مسلمى شبه القارة لهذه اللغة وآدابها ويحوى هذا الجزء كثيرا من المعلومات المفيدة القيمة توفى غرض الدارسين والباحثين على السواء ·